

أدباء ومدرسون ! ...

« حديث فو شجون إلى وزارة المعارف
والدكتور زكي مبارك ... »

للأستاذ محمد سعيد الحريان

—————

تلطف الدكتور زكي مبارك فتناول في حديث الأسبوع
الماضي موضوع « الترقية إلى المدارس الثانوية » ؛ وهو موضوع
من حق صديقنا الدكتور زكي مبارك أن يتحدث عنه ، لأنه
بسبيل من عمله الرسمي في وزارة المعارف ، وعمله الأدبي في مجلة
« الرسالة » ؛ فليس من حق أحد أن يدهش للأسلوب الذي
تناول به موضوعه ، أو للطريق الذي سلكه لإبداء الرأي فيه ؛
وإنه لمن الغريب أن يكون الدكتور زكي مبارك ملوماً على ما في
حديثه ذلك من التناقض وفساد الحكم ؛ إذ كان يعل عليه الرأي
حين يحكم شخصيتان لا يجتمان على فكرة واحدة : شخصية
زكي مبارك المفتش بوزارة المعارف ، وشخصية زكي مبارك المؤلف
الحق الأديب ؛ ومن أين لهاتين الشخصيتين أن يجتما على رأى
وبينهما ما بينهما من الفوارق العقلية ، ولكل منهما مقياسه
في موازين الأشياء ... !

والموضوع الذي تناوله الدكتور زكي مبارك حقيق بالبحث
والدراسة ، لأنه موضوع هام يتصل من قريب بشأن من أخص
شؤوننا الأدبية ، إذ كان العلم هو فكرة للشعب ، وأمان الفرد ،
ومستقبل الثقافة ، ولكن هذا الموضوع على عمومه يتصل بجانب

أكتفى بهذا القدر لأن الإطالة قد بلغت حداً لم أكن
أقصد إليه

أما بعد : فيا أيها الإنسان العظيم للناعم الآن بفرحة الحب
الأسنى ، لقد بلغت رسالتك الجميلة ، وأسكرت الدنيا بترانيمك
المرعة رحة وعجبة ، ودعوة للسلام والألفة ، فن حقاك أن تهنا
الآن بلقاء حبيبك الأعظم ، ومن حقاك على الدنيا هذه أن تذكر
فضلك ، وأن تهتدى بهدى روحك العظيم يوم تصحو من هذا
الجنون المطبق ، وهي لا بد أن تصحو يوماً .

مبين سرور

(بغداد)

من حياتي الخاصة يبرجنى أن آخذ موضوعاً للحديث ، ولعل
كثيراً من الذين يقرءون لي في الرسالة منذ سنين ، لم يدروا في خلا
أحد منهم أن يسأل عن عملي الذي أنكسب منه ووظيفتي الرسمية
التي أعيش بها قبل أن يعرف بي الدكتور زكي مبارك ...

ومندرة إلى طائفة من القراء ، فإن الرأي العام في مصر
وفي الشرق ما زال يقيس منازل الرجال على قدر منازلهم في مناصب
الحكومة أو منازلهم في دولة المال !

على أنه لا مندوحة لي اليوم عن الحديث في موضوع كنت
أنتكبه فراراً من الهممة ، ولست أطمع بمد في كلمة عطف
أو أخشى كلمة ملام ، فإنني لقوى بنفسى عن استجداء للعطف
أو خوف اللام ، ومن وجد في نفسه الطاقة فليس له عذر من
التقصير ؛ ولينضب من ينضب لنفسه أو للحق ، فليس بي إلى
أحد حاجة ، وليس لي في سبيل الحق أن أخاف سطوة إنسان !

وأبدأ حديثي لأصحح للدكتور زكي مبارك قوله : « للترقية
إلى المدارس الثانوية » فإن كلمة « للترقية » هنا لا تؤدي معناها
اللتوى كما يفهمه أهل التحقيق ، وإيس في نقل معلم من المدرسة
الابتدائية إلى المدرسة الثانوية أى معنى من معانى « للترقية »
وليس ثمة فرق بين معلم هنا ومعلم هناك ، لا في الدرجة العلمية ،
ولا في العمل ، ولا في المال ، ولكن للفرق كل الفرق في التعليم
وفي المكان ...

هذا حق يعرفه زكي مبارك « المفتش بوزارة المعارف » ، كما
يعرفه وزير المعارف نفسه ، وكما يعرفه المعلمون جميعاً في المدرستين
الابتدائية والثانوية ؛ ولكن لماذا ، لماذا — والأمر كذلك —
تصر وزارة المعارف على تسمية هذه النقلة « ترقية » ؟ ولماذا
يشكو طوائف من المعلمين فيطلبون حقهم في هذه « الترقية » ؟
جواب ذلك : أن هذه « النقلة » هي مظهر من مظاهر
« الثقة العلمية » بالمعلم للقول ، وهي « اعتراف رسمي » بأن لهذا
المعلم أهلية لتعليم طائفة من التلاميذ أنضج عقلاً من إخوانهم
في المدرسة الابتدائية ؛ وعند « الثقة العلمية » وهذا « الاعتراف
الرسمي » هما كل جزاء المدرس للقول ، وهما حصبه وكفايته ؛
وأهل العلم دائماً هم أرفع الناس بالقليل !

هؤلاء النفر الستة يا صديقي — وأنا منهم — لم يرجوا
وزارة المعارف أن ترقهم إلى المدارس الثانوية كما ظننت ، فإهم
أصدق نظراً من أن تحدهم للفروق الصغيرة بين الأسماء
فتحملهم على الرجاء والاستجداء ...

بلى ، نحن لم نطلب هذه « الترقية » ، ولم نَسْجَحْ لها ،
ولا نعرف لها طمها مما يمر في الأفواه ويحلو ؛ وإن لنا من الإيثار
بأنفسنا ومن الإيمان بمعنى الأدب ما يرتفع بنا عن ذلك المستوى ،
ولكننا كتبنا لتنبه وزارة المعارف إلى معنى أدبي كان ينبغي
ألا تغفل عنه أو يغفل عنه القائمون بشؤونها ؛ — كتبنا لنفهمها
إلى أنها بما أكثرت من الحديث والنشر عن امتحان المسابقة ،
ونماذج المسابقة ، قد ألفت في وهم للناس أن معلم المدرسة
الابتدائية ليس له من العلم مثل حظ المعلم في المدرسة الثانوية ،
وليس له تحصيله وكفايته ...

هذا المعنى يا صديقي يسوءني ويسوءك ، ولكنه يسوء
إلى وزارة المعارف أكثر مما يسوءني ويسوءك حين يعرف الناس
أن بين المعلمين في المدارس الابتدائية طائفة من أهل التأليف
والتحقيق يدعى صونهم في آذان للشرق العربي وعلاً حديثهم
نواصي الأدب هنا وهناك ولا تكاد تحس بهم وزارة المعارف ...
أي نهمة يا صديقي تنال وزارة المعارف في منعتها ، وماذا
يقول الناس عن كفايتها وحصن تقديرها للأثار العلمية ،
وهي تجهل أقدار المعلمين من سلعها وما أتعجوا من بحوث
وما استعدوا من فنون ؟

... هذا المعنى يا صديقي هو الذي رفضنا من أجله الصوت
إلى وزارة المعارف — ووزيرها من أهل التأليف والتحقيق —
نطلب إليها أن ترد إلينا الاعتبار العلمي ، فتسترف بنا أدياء
ومؤلفين وعحققين

ولكنك تقول يا صديقي : « إن هذا الباب إن فُتح
فسيتهيج فرساً كثيرة لأدياء التأليف والتحقيق ... »
وأعنيك يا صاحبي أن نكون قصدت إلى المعنى الذي نفير
إليه عبارتك ؛ فأني حمل لوزارة المعارف إن كانت لا تترك
الفرق بين الدعي والأصيل من أهل التأليف والتحقيق ؟
وبذكركني قولك هذا يا صديقي كلمة قالها لي الدكتور فلان

... وقد سنت وزارة المعارف سنة منذ طمحين : أن تُسَبِّقَ
بين المعلمين في امتحان سنوي عام ، لنمخ أسبقهم تقنيا العلمية
واعترافها الرسمي

تقد كثر ما تحدث المربون عن عيوب الامتحان ، واختلال
ميزانه ، وجنابته على شخصية التلميذ ... أفلم تجد الوزارة
— بعد تجارب السنين — وسيلة لاختبار كفاية المعلم غير
الامتحان وقد قالت ما قالت فيه وسمعت ما قيل ؟

أليس لدى وزارة « المعارف » من وسائل « المرفة »
في ذلك غير امتحان « المعلمين » ؟ بلى ؛ هكذا قالت وزارة المعارف
منذ سنتين وما تزال تقول : الامتحان ؛

الامتحان ؟ بالله كيف صارت عيوبه حسناً ، واختلال
ميزانه دقة ، وجنابته على « شخصية التلميذ » سيلاً إلى تحديد
« شخصية المعلم » ؟

ولكن لا علينا من ذلك ؛ فليس يميننا ما تكون وسيلة
وزارة المعارف إلى اختيار معلمها ، ولو كانت المباشرة بين المعلمين
في سجل الأتقال ... !

ولكن ، لأي شيء سنت الوزارة سنة الامتحان ؟
الوزارة تقول إنها تقصد من ذلك إلى استثارة القوى
والكشف عن « الكفايات النعمورة » ؛ هذا كلامها ؛ فما بالها
تصر على امتحان ذوي القوى العامة و « الكفايات المشهورة »
إذا لم يكن المقصد من الامتحان إلا الكشف أو الاستكشاف ؟
ما قيمة الصباح تشعله في النهار والشمس طالعة ؟

وما حمل المظلة رافعها على رأسك في الظلام ولا مطر ولا غمام ؟
وماذا يقول المعلم يوم الامتحان إذا كانت مؤلفاته وأعماله
الأدبية هي موضوع الامتحان ؟

هنا مشكلة أدبية عامة ، هي مشكلة « النفر الستة » الذين
قَصَّر عليهم الدكتور زكي مبارك حديثه في العدد الماضي .
ليت شعري ما شأنك وشأنهم يا صديقي ؟ إنك لتعرف
هؤلاء النفر الستة معرفة الرأي والنظر ، وتعرف كم أبكوا
في جهادهم للعلم منذ سنتين ؛ وأراك لم تنكر أقدارهم العلمية والفنية
على طول ما تمتعت عليهم ونجيت .

أترك يا صديقي قرأت قصة « من أدباء الجيل^(١) » ؟ نعم ،
إنني أذكر ذلك ، فقد كانت موضوع حديث بيتنا يوماً ، ولكنني
أشير عليك أن تعود إليها فتقرأها مرة ثانية ، فلكمك واجدٌ
فيها معاماً ولذة يرفهان عنك بعض ما تجد من ثقل هذا الحديث !

وأعود إلى ما كنا فيه ، فأسألك يا صديقي : أرى حقاً
وصداً أنه لا بد من امتحان « السابقة » لترقى في الوظائف
حين تكون كفاية الموظف في حاجة إلى دليل ؟ ...
ففي أي مباراة سبقت أنت حتى صرت « صريعاً كبيراً »
تحكم على أقدار « صغار الملمين » ؟ وفي أي مباراة سبق فلانٌ
وفلانٌ ليهكونوا أعضاء في لجان الامتحان وحكاماً في مباريات
الملمين ؟ ...

وأبدر فاعتذر إليك وإلى فلان وفلان ؛ فإذ أردت أن أغض
من أقدارك العلمية ، وإنكم لأدباء من أهل التأليف والتحقيق ...
... ولكن رأيتك في بعض ما صاقتك إليه شجونُ
الأحاديث ، تفكر قيمة كل المقاييس العلمية إلا مقياس الامتحان ،
فرايت أن أحرف أين أنت هناك ؟ ...
أهذا ما تسميه الزهو البهيم ؟

الهم إنني أستغفرك وأستهديك ، وأسألك إلى ما جذبتني من
الكبرياء ، أله تزيدني ثقة بنفسى ، وبقينا بحق ، وإيماناً
بملى ! ...

وإنه لعل الرغم منى — يا صديقي — ألا تنهيا لى للعواملُ
للتفسيه لى تسمح لى أن أقبل على الامتحان ، وإن كانوا :
« فى أوربا وأمريكا يتقدمون إلى السابقات بعد التجسين ، ولم
فى ميدان المجد الأدبى والعلمى مكان » ...

تسأنى : لماذا ؟

وأسألك : لماذا ؟

وتعرف وتسكر ، وأحرف وأغضى ، وتفترق للشقاء من
بسات حين تتراعى سورة فلان وفلان ... « وأنت تعرف
ما أريد » !

محمد سعيد العريانه
للدروس بالمدرسة الابتدائية

منذ بضعة أشهر ؛ قال : « لو كنت موظفاً فى مصلحة التنظيم
لوجدت من وزيرها اعترافاً بمجهودك الأدبى أكثر مما أنت
واجدٌ اليوم فى وزارة المعارف ... ! »

على أن للسألة يا صديقي وجهاً أخطر من ذلك وأبعد أترأ
فى أدب الجيل ؛ فإن إنكار الفضل على « ستة نفر » استملنوا
بجهادهم بين ألف ومائتى معلم فى المدارس الابتدائية ، جديرٌ
بأن يفقد هؤلاء « لثفر الستة » حلاوة الإيمان بمعنى الأدب ،
ويردّهم آلات لا يعملون إلا « الواجب » ، الواجب الذى
يؤجرون عليه بالطعام والشراب واللباس وزخرف الحماية ،
وأعوذ بالله من سوء الخاتمة !

ومالى أبعد فى الثقل وأقدر وأتوقع وأترك الواقع اللعوس ؟
ألمت تعرف كما أحرف يا صديقي من لى « يؤلف » أكثر
للكتب المدرسية فى وزارة المعارف ومن لى « يشرفها »
باسمه الكريم ؟ ... أحسبك لا تطالبنى بالتصريح بأكثر من
ذلك ، لأنك لا تحاول أنت أنس تفكره ولا أحاول أنا
أن أخفيه ...

وتسأنى : ما لهذا والمشكلة لى نعالجها اليوم وتلك قضية
من قضايا الأخلاق وهذه مشكلة من مشا كل الأدب ؟

وأقول : إنه ما دام الاعتبار الأول عند وزارة المعارف
فى الحكم على الآثار الأدبية هو « وظيفة المؤلف » فإبداً أنه
يكون هناك تعاون بين ذوى « العلم » وذوى « الجاه » شبه
بالتعاون بين « رأس المال » و « جهد العامل » فى تكوين
« شركة » من شركات « الربح والتشهير » !

أترى أمثلة يا صديقي أم كفالك ما تعرفه وأحرفه مما لا تحاول
أنت أن تفكره ولا أحاول أنا أن أخفيه !

ولكنى أراك لم تنفع بعد بالملاقة بين ما ذكرت وبين
المشكلة لى نحن بسببها ؛ إذن فاهم يا صديقي أن جرنومة ذلك
الدهاء هى تلك « الأرستقراطية العلمية » لى تأبى أن تعرف
بقينة الإنتاج الأدبى لأحد من « صغار الملمين » إلا ...
إلا ماذا ؟ ... معذرة فقد نسيت !